

ميكروسوسيولوجيا الجريمة من خلال الممارسات السحرية والشعوذية دراسة سوسيولوجية - أنثروبولوجية تبحث في علاقة الجريمة بالسر والشعوذة: منطقة سيدي علي بن عون مثالا للدراسة

الدكتور سعيد الحسين عبدولي، باحث في العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، تونس.

ملخص:

تعنى هذه الدراسة بالبحث عن العلاقة بين ثلاثة ظواهر إجتماعية هي: السحر و الشعوذة والجريمة. فهذه الأخيرة يمكن إدراكها بسهولة من خلال تجلياتها العادية، إلا أنه إذا تعلّق الأمر بموضوع السحر والشعوذة يصبح من الصعب حصرها بحكم طبيعة تلك الأنشطة المحفوفة بالمخاطر التي تهدد الفاعل الاجتماعي، مثلما تتسبب في عديد التوترات داخل المجتمع. وعليه فإن عديد الممارسات السحرية والشعوذية التي تتصل بتطلعات الأفراد، غالبا ما تخلف عديد الجرائم متناهية الخطورة. وهذا ما سنحاول معالجته من خلال دراسة ميدانية وفق قراءة سوسيولوجية-أنثروبولوجية.

Résumé

Cette étude consiste à préciser la relation entre trois phénomènes sociaux: la magie, la sorcellerie et le crime. Ce dernier est facilement saisissable en se référant à ses manifestations habituelles, sauf s'il devenait lié à la magie et à la sorcellerie; dans ce cas, le fait de cerner le crime devient difficile vu la difficulté des activités entourées par le danger. Ces activités perturbent l'actant social et la société en elle-même. Dès lors, les applications de la magie et de la sorcellerie liées aux ambitions individuelles, mènent souvent aux crimes à différents degrés de danger. C'est le sujet que nous allons entamer à travers une étude de terrain tout en se basant sur un aperçu socio-anthropologique.

مقدمة:

يطالعنا راهن البحث السوسيولوجي على ضرورة توسيع دائرة الاهتمام و الدراسة للقضايا الاجتماعية دون الاكتراب بجانب الرقابة المفروض عليها والذي يجعلنا نترى عند التفكير في التطرق إلى أحد الموضوعات. وأحيانا أخرى فإن تناولنا للظاهرة يبق منقوصا بحكم إهمال أحد جوانبها الخفية أي الإكتفاء بأبعادها البرانية والتغافل عن أغوارها المتشعبة، خاصة إذا اكتست بمسائل ميتافيزيقية. وتارة ما يبرر ذلك بأسباب ذاتية وأخرى موضوعية أو بسبب الاثنين معا إذا اصطدم العامل الأخلاقي بالديني والقانوني والسياسي، وهي من الدوافع التي تحول دون المنافحة عن مبدأ التحليل الحيادي. ومن ناحية أخرى فإن الذات العارفة مهما تجردت من القيم الذاتية يمكن أن تكون طرفا في تفجير الاشكال السوسيولوجي خاصة بالنش فيما هو خفي، مسكوت عنه، وما هو قدسي.

من هنا فإنه على الباحث في حقل العلوم الانسانية والاجتماعية لفت الانتباه إلى هذا الفاصل المعرفي الذي فرضته آليات الرقابة التي ألمحنا إليها سلفا أو بسبب غياب معرفي حال دون التفتن إلى تلك الخصائص التي تخفيها الظاهرة موضوع الدراسة وكل ذلك من أجل تقديم قراءة متكاملة تراعي الموضوعية جذرا ولا تكثرث بالمعوقات الاستيمولوجية فرعا.

إن المقصد من هذه المقدمة المنهجية، أن نشير في مطلع هذه الدراسة أن بحثنا هذا سيعنى بأحد مظاهر المسكوت عنه في المجتمع التونسي (ونفس الحال كذلك في معظم الأقطار العربية) وهي السحر والشعوذة من خلال الكشف عن علاقتهما بالجريمة. فالممارسات السحرية قائمة في المجتمع التونسي سواء في مستوى التصورات أو الممارسات. وعلى غرار المشتغلين في مجال السحر نما طيف آخر ينتمي إلى نفس الدائرة وهم المشتغلين في الشعوذة وينتحلون عدة تخصصات، مستفيدين من تطلعات الأفراد إلى فك مشاكلهم و إيجاد حلول لمعضلاتهم. فهم إما أصحاب بركات أو لهم قدرات خارقة، ولكن في الأصل لهم قدرات على التأثير في الزبون بحيلهم الفائقة التي يستنبطونها من حاجيات الأفراد مستخدمين في ذلك عدة وسائل لإيقاعهم. لتكون لهم القدرة على شفاء المرضى وتحقيق تطلعات الفاعلين في شتى الميادين بما في ذلك الأفعال المدمرة التي يأتونها، فيؤدي بعضها إلى الموت وخلخلة النسيج الاجتماعي وتصدع بنيانه، ناهيك عن الجرائم البشعة التي تنطلق منها رائحة الموت والأئين الصامت مما يدفع على الانتقام أحيانا والتوتر النفسي أحيانا أخرى.

وما يبعث على الحيرة حقا هو حجم هذا الانتشار للظاهرة السحرية بكل مكوناتها: سحر -شعوذة، وعلاقة الفاعلين معها والنتائج المترتبة عن كل ذلك. فالسحر كممارسة لا يزال قائما في المجتمع التونسي بل ويحتل موقعا هاما في وسائل الإعلام ومنها ركن الإشهار، ويهدف مروجوه إلى ربطه بحاجيات الفاعلين ليكون

بذلك واسطة لتحقيق الحراك الاجتماعي، ومن ناحية أخرى نلاحظ بشكل جليّ تفشي هذه الممارسات في ظل الوجود المكثف لمؤسسات المجتمع التي أفرزتها عملية التحديث.

1. التأسيسات النظرية للدراسة:

1.1. الإطار النظري:

تعدّ الظاهرة السحرية في عموميتها واحدة من الظواهر التي تميّز النسيج الثقافي والفولكلوري للمجتمع التونسي، وعليه فإنه يمكن مقاربتها سوسيولوجيا بعدد الظواهر الأخرى التي تعدّ إفرازا لها أو تتقاسم معها بعض الخصائص. وهو ما يعني أن قياس الظاهرة السحرية يستدعي عديد الدراسات قصد تفكيك عناصر تكونها واشتغالها وكذلك تجلياتها ومدى انتشارها في المجتمع وعلاقة الفاعلين بها.

وفي هذا الإطار تعدّ الجريمة أبرز العناصر المتصلة بالممارسات السحرية والشعوذية، بل وأكثرها ارتباطا خاصة في جانبها الخفي الغير ظاهر للعيان. أي ما يعني صعوبة إدراك ملامحها بكل يسر سواء عبر الملاحظة المباشرة أو تجلياتها العلنية، بحكم طابعها الميكروسوسيولوجي الذي تقتضيه كل الأنشطة السحرية والشعوذية التي تتم في الخفاء أي في أوكار السحرة والمشعوذين أو ما يسمى بـ "الخلوة".

من ناحية أخرى، فإن الدراسات التي اهتمت بدراسة الظاهرة السحرية والشعوذية في العالم العربي الاسلامي ومنه المجتمع التونسي على قلتها لم تركز بما فيه الكفاية على معطى الجريمة الذي هو إفراز تلك الأنشطة. بمعنى التركيز بآثارها الفتاكة على المجتمع.

وعلى العموم فإن أبرز الدراسات التي تناولت دراسة هذه الظاهرة في باقي أنحاء الوطن العربي ما قامت به الباحثة الجزائرية بدّاك شابعة¹ وفي مصر نذكر دراستين لكلّ من واليس بدج² وسامية حسن الساعاتي³ أما في المغرب فتعدّ أعمال محمد أسليم، من ترجمات⁴ ودراسات⁵، من أبرز ما كتب بخصوص هذا الموضوع. ولقد اهتم العلامة ابن خلدون بهذه الظاهرة مؤكدا على حقيقتها كظاهرة اجتماعية من خلال قوله: "ولنقدم هنا مقدمة يتبين لك منها حقيقة السحر. وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة الخواص. وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر. وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها (...). ونفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية...".⁶

فضلا عن هذا وذاك، انفردت السلطات التونسية على الصعيد العربي بالترخيص للعرافين والمنجمين ومدعي القدرات الخاصة، للعمل بصفة شرعية، وتسجيل أنشطتهم في سجلات الغرف التجارية، والسماح لهم - بالتالي - باستعمال وسائل الدعاية والإعلان للترويج لبضاعتهم ودعوة المستهلكين للوقوف على "خوارقهم"، وذلك خلافا لما كان سائدا حتى أواخر الثمانينيات، حيث كان القانون يحظر هذا النوع من الأعمال ويعاقب عليها.⁷

ولأن السحر حقيقة سوسيولوجية وأنتروبولوجية شددت اهتمام عديد العلماء من أمثال ادموند دوتيه وما لينوفسكي و جيمس فريزر ومارسال موس... فإنه حتما ليس ظاهرة متعالية عن المجتمع ومشاغله ومكوناته: رمزية كانت أم حسية، بل هو منذ البدء وليد المجتمع وحاجياته إلى تحقيق تطلعاته، كما أشار إلى ذلك مالمينوفسكي لما فسّر الظاهرة السحرية تفسيراً سيكولوجياً وسوسيولوجياً، معتبراً " أن الإنسان البدائي لم يكن قادراً على استيعاب كل ما هو منطقي وعلمي، فالتجأ بالتالي إلى الطبيعة وإلى ما يحكمها لتفسير بعض الظواهر. معتبراً أن السحر موجّه إلى الحالات التي يصعب فيها الفهم حتى في مجال النجاحات. وهذا النوع من التفسير سماه بـ"تخفيض مستوى الضغط" واعتماد السحر كـ"مقاربة تعويضية" لما استحال فهمه. وبالتالي فإنه يمكن القول أن السحر يبدأ عندما تنتهي التكنولوجيا"⁸.

ووفقاً لمنظور فيبر وتعريفه للفعل الاجتماعي لا بد من فهم السلوك الاجتماعي أو الظواهر الاجتماعية ضمن مستويين: المستوى الأول أن نفهم الفعل الاجتماعي على مستوى المعنى للأفراد أنفسهم، أما المستوى الثاني فهو أن نفهم هذا الفعل الاجتماعي على المستوى الجمعي بين جماعات الأفراد. ولكي نفهم عمل الفرد وأفعاله أو سلوكه الاجتماعي على مستوى المعنى لا بد من النظر إلى دوافع الفرد ونواياه واهتماماته والمعاني الذاتية التي يعطيها لأفعاله والتي لم تكن خلف سلوكه،"⁹ وفي كلا الحالتين فإن أي ممارسة سحرية تكمن وراءها عديد المقاصد منها ما هو ظاهر وبعضها الآخر خفي لا يمكن معاينته مادياً بل أمكن معاينة آثاره وذلك هو مدلول الجريمة في الممارسات السحرية والشعوذية مثلما عايناها في المجتمع التونسي وهي في جانب كبير منها تتصل بالحياة: الزنا والفاحشة وخرق المقدّس وتدنيسه، الفجور بصورة البشعة، ساحر أم مشعوذ معالج وبنت تصيح وحضرة قائمة.. موقد وبخور، ثم خلوة وعطور.. تتمات وتعويذات وطلاسم.. ثم لذة وشهوة وصيحات فزع من هول المشهد أو سكوت وقبول بالرضا.

1.2. الإشكالية:

الإشكالية الرئيسية:

إلى أي مدى ترتقي بعض الممارسات السحرية والشعوذية إلى درجة الجريمة الموجبة للعقاب؟

الإشكاليات الفرعية:

ماهي طبيعة الممارسات السحرية والشعوذية ؟

هل من قرائن مادية ثابتة بين الممارسات السحرية والشعوذية والجريمة بأركانها المعروفة؟

ما الدوافع الكامنة وراء هذا النوع من الممارسات التي تخلف عديد الجرائم؟

كيف يتمكّن السحرة والمشعوذون من إخفاء جرائمهم؟

1.3. الفرضيات:

تصنّف العديد من الممارسات السحرية والشعوذية في خانة الجرائم متفاوتة الخطورة. طبيعة النظام السياسي والقضائي في البلاد ساهما في تفشي هذا النوع من الجرائم. الساحر مثل المشعوذ له آلياته الخاصة في إخفاء ممارساته الاجرامية. تطلعات الفاعلين من الحوافز الرئيسية في انتشار الممارسات السحرية.

1.4. تعريف المفاهيم:

1.4.1. السحر:

عديدة هي التعريفات التي قدمت حول السحر، فهو من الناحية السوسيولوجية يقوم على تعاليم وطقوس معينة شأنه شأن الدين، وهي طقوس تتسم بطابعها الإيماني أو الاعتقادي أو كما يقول عنها دوركايم "ما يميّز هذه الظواهر الدينية طابعها الإلزامي، فالمعتقدات والممارسات تفرض نفسها على المؤمنين بها" ¹⁰. ومن الناحية الاجرائية فإن أبلغ التعريفات للسحر وأكثرها قربا من تصور الفاعل الاجتماعي ومن المفهوم الشائع في المجتمع التونسي: "أنه عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه الساحر أو يعمل به شيئا يؤثر في

بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، فمنه ما يقتل ومنه ما يمرض ومنه ما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، ومنه ما يبغض المرأة إلى زوجها أو العكس، أو يحبب بين اثنين. كل هذه الأشياء واقعة بين الساحر و الشيطان الموكل بعمل ذلك. وذلك لا يتم إلا بحصول منفعة بينهما. فيقوم الساحر بفعل المحرمات و الشكرات و الكفريات في مقابل مساعدة الشيطان له وطاعته فيما يطلب منه." ¹¹

يكون السحر إذا في ضوء هذا الفهم، كل الأنشطة التي يمارسها بعض الأفراد و التي تبدو في معظمها غامضة وملفتة للانتباه سواء من حيث مقاصده أو الوسائل المعتمدة في ممارسته. إنه بالتالي جوّ طقوسي خاص، تتألف فيه جملة من العناصر المحسوسة و اللامحسوسة. وكأنه عالم من الخوارق والعجائب. يتحول فيه المستحيل إلى ممكن والسهل إلى صعب، والعجيب إلى مألوف، والغيب إلى معلوم... إنه فنّ الممكن الذي بمقتضاه تفاعل الرموز من كلمات ورسومات وحركات وأعراف فعلها في المكوّن المادي و النفسي على حد سواء، ليكون السحر بذلك حسب مارسال موس: "منتشرا في كافة أرجاء المجتمع." ¹²

1.4.2. الشعوذة:

إن الشعوذة ولئن كانت تشترك مع السحر في بعض الجوانب، فإنها لا تحمل نفس دلالاته. فالشعوذة هي في اعتقادنا ضرب من ضروب التخيل والخداع والإيهام و ادّعاء البركة ¹³ baraka لوتستند إلى عبقرية

المشعوذ في إيهام الفرد بأنه يأتي أفعالا سحرية تشدّ الناظر، لكنها في الحقيقة ليست كذلك. فهي بذلك القدرة على المراوغة دون الاستناد إلى نفس الوسائط التي يعتمد عليها الساحر. وهذا ما أكّده الباحث محمد زهير الحريري من خلال اعتباره الشعوذة " حيل وخداع وتضليل ليست من السحر المقصود حقيقة لأنها تتم دون الاستعانة بالأشياء التي يقولها الساحر ويعتمد عليها في سحره فهي أقرب إلى أن تكون حركات خفة تعتمد على المهارة و السرعة في عمل الأشياء وحيل وتمويه مع خداع لبصر الرائي وجعله يرى أشياء ليست موجودة... ونحن نسلم معهم بأن الشعوذة تخيل وغير حقيقة"¹⁴.

مثلما أقرّ الباحث المغربي محمد أسليم في أكثر من موضع، بأن السحر غير الشعوذة، فهو يقول في سياق حديثه عن السحر في المغرب " أما عندما يكون المُخاطَبُ هو القارئ المغربي، فإن اللهجة تتغيّر، فتحكمها نزعة نضالوية يُخْتَزَلُ السّحر فيها إلى مجرد شعوذة ومظهر من مظاهر التخلف الاجتماعي والاقتصادي التي ينبغي التخلص منها في أسرع وقت ممكن"¹⁵.

وبإزاء هذا الحال فإنّ الشعوذة، هي القدرة على التضليل وإيهام الناظرين وعادة ما يدّعي المشعوذ- شأنه في ذلك شأن الساحر - أنه صاحب بركات، وله خدام من الجن وذلك من أجل بثّ الطمأنينة في المتلقّي وجعله يستأنس به و بقدراته. ولكن في الأصل هو يستخدم آليات تضليل وخداع بحسب شطارته وهذا ما ستكشف عنه دراستنا من خلال المشعوذ الذائع صيته والمكّتي بحرجوطة.

1.4.3. الجريمة:

الجريمة بمعناها الواسع هي كل مخالفة لقاعدة من القواعد تنظم سلوك الإنسان في الجماعة، فهي في جميع الأحوال سلوك فردي يتمثل في عمل أو تصرف مخالف لأمر فرضته القاعدة ويباشر في وسط اجتماعي. وهي من الناحية الشرعية كل عمل أو قول خالف شريعة الله تعالى ورسوله الكريم، سواء بفعل ما نهى الله ورسوله عن فعله أو الامتناع عن ما أمر الله ورسوله بفعله¹⁶.

1.4.4. سيدي علي بن عون:

تقع سيدي علي بن عون في الجنوب الغربي لسيدي بوزيد تحدها شمالا معتمدية بئر الحفي وجنوبا أولاد منصّر وغربا حسي الفريد التابعة لولاية القصيرين أو هي كما ورد في القراءة الاستعمارية: "أولاد سيدي علي بن عون، منطقة عشيرة من السهوب التونسية تقع بين قفصة وسيدي بوزيد والقصيرين".¹⁷ وهي منطقة فلاحية بالأساس، حيث معظم أراضيها حقول زيتون ولوز، كما أنها تنتج الحبوب إذا كان معدل نزول الأمطار مرتفعا. ويعتبر قطاع تربية الماشية الشريان الأساسي في حياة المواطنين وخاصة تربية الأبقار الذي شهد اهتماما متزايدا من قبل فلاحي الجهة.

1.5. العينة:

اشتملت عينة الدراسة على 150 مستجوباً من سكان أهالي سيدي علي بن عون بصفة عشوائية واخترنا هذا الرقم حتى تكون ممثلة بما فيه الكفاية لمجتمع الأصل الذي لا يزيد عدد سكانه عن 45000 ساكن.

1.6. منهجية الدراسة:

راوحنا بين المنهج الكمي والكيفي في معالجة البيانات المتصلة بموضوع الدراسة مثلما اعتمدنا تقنية الملاحظة بالمشاركة والملاحظة غير المباشرة فضلاً عن المقابلات التي أجريناها مع جمهور المستجوبين بما في ذلك فئة السحرة والمشعوذين. أما في عملية معالجة البيانات فقد اعتمدنا برنامج spss لاستخراج الحزم الإحصائية و الجداول والرسوم البيانية قصد ادراك علاقة المتغيرات، ومن ثمة سهولة شرحها للتحقق من مدى صدق الفرضيات.

2. الجريمة من خلال بعض المشاهد السحرية والشعوذية الأكثر رواجاً:

لأن دراستنا تعنى بدراسة جرائم السحرة والمشعوذين، فإن الأمثلة التي سنقدمها هي نتاج بحوثنا الميدانية في فضاء البحث سيدي علي بن عون، وهي ليست حصراً جامعاً بل هي بعض الأمثلة التي تكشف عن أبشع مظاهر الجريمة المسكوت عنها والتي تفلت في جانب كبير منها من الرقابة أو يغض عنها القانون الطرف باعتبارها ليست من مشمولاته أو لعدم توفر الأدلة المادية، خاصة وأن بلداً مثل تونس لا يتقصّى كثراً في جرائم السحرة والمشعوذين بل بالعكس من ذلك يدعم أنشطتهم سواء بالسكوت عنهم أو بتشجيعهم ولكأن ذلك داخل في سياسات التشغيل.

وعلى هذا الأساس نشير منذ البدء أن ما يقترفه السحرة والمشعوذون من جرائم متفاوتة الخطور لا يمكن حصره في دراسة واحدة، لذلك فغن ما سنقدمه من أمثلة في دراستنا هذه يبق مجرد أمثلة تخص مجتمع الدراسة، وهو ما يعني ضرورة تكثيف البحوث الميدانية المعمقة قصد تقصي هذا النوع من الجرائم دون الاكتراث بحماية أجهزة الدولة لهم.

2.1. الجرائم الأخلاقية:

2.1.1 سحر التصفيح: جريمة شرف واغتصاب طفولة:

يعدّ الشرف في الدين الإسلامي المرجع الأخلاقي الأول لمسألة الشرف في المجتمعات العربية ومنها التونسي، وهو سلوك وأخلاق وممارسة وعمل وعبادة، إنه جملة الموصفات التي يجب أن تتمتع بها المرأة كما الرجل من أجل امتلاك منزلة مرموقة في المجتمع، وتحظى بإعجاب الآخرين وتطلق عليها عدة صفات كما هو شائع في المجتمع التونسي، شأن الصدق والأمانة والإخلاص والتربية والابتعاد عن الشبهات... كل ذلك يدخل في مشمولات الشرف.

لكن لا يزال المخيال الجمعي التونسي عموماً ومجتمع البحث على وجه الخصوص يحتكر شرف المرأة في عذريتها، فماذا لو كانت هذه المرأة عذراء لكنها لا تتّصف بمقاييس الشرف التي حددناها سابقاً؟ وماذا لو كانت عذراء ولكنها تقوم بشتى أنواع الممارسات الجنسية؟ أفلا يعدّ بذلك التّصفيح عاملاً يدفع المرأة للممارسات السحرية، وحجاب تتستّر به عن أفعالها، ناهيك وأنّ بعض النساء في المجتمع التونسي يشتغلن في التجارة الجنسية.

في هذا الإطار، هناك ظاهرة غالباً ما نسمع عنها، وتتعلّق بالنساء وتحديداً بالصبايا وهي "التّصفيح". الذي عرّفه المدعو "ج" (الذي ينفي عن نفسه صفة الساحر والمشعوذ، معتبراً نفسه روحانياً) وفق الآتي: "هو عمل عادة ما تقوم به النساء فضلاً عن كونه عملاً شيطانياً، أي هو فعل سحري والغاية منه الحفاظ على بكرة البنت حتى إذا مارست الجنس مع أيّ كان فإنه يستحيل عليه فضّ بكارتها، حيث تخاف الأمّ على ابنتها من فقدان عذريتها لأنها شرط أساسي لزواجها فتعتمد إلى تصفيحها".¹⁸

من ذلك نفهم، أن التّصفيح ظاهرة قديمة في المجتمع التونسي يهدف إلى الحفاظ على بكرة المرأة مهما مارست الجنس، وما فهمناه من هذه العملية السحرية أن التّصفيح ليس بسحر ضار من طرف أحد الأعداء مثل سحر التعطيل بقدر ما هو سحر دفاعي تقوم به الأمّ التي تخاف على شرف ابنتها، هذا الشرف الذي تحتزنه الذاكرة التونسية في أنه حفاظ البنت على عذريتها، وما يلاحظ في هذا الصدد أن مفهوم الشرف وفق الوعي السحري التونسي بل و حتى العربي يختزل مسألة الشرف في عذرية المرأة دون العبء بأمور أخرى تتصل بالشرف.

طالما سمعنا في هذا الاتجاه، أنّ التّصفيح عمل سحري شيطاني تقوم به النساء، أي والحال تلك يدخل في عداد السحر الشعبي، وهو من اختصاص النساء في المقام الأول. وعليه فإننا عمدنا إلى فهم الظاهرة من خلال مقابلاتنا مع عديد المشتغلين في مجال السحريات ومنهم الروحاني "ج"¹⁹، مثلما التقين أكثر من فتاة "مصفّحة".

ومن جملة المعاني التي سجلناها - على غرار قدرة الفتاة على ممارسة الجنس خارج الإطار الرسمي وهو الزواج دون أن تخاف عن فضّ بكارتها - تراجع سحر التّصفيح في المجتمع التونسي عمّا كان عليه قديماً، وذلك يعود في اعتقادنا إلى دور الطّب الحديث الذي أوجد عدة طرق علمية تتحصّن بها الفتاة مثل العملية الجراحية التي تجريها قبل موعد زفافها أي قبل ليلة "الدّخلة". ذلك معناه أنه بمقدورها الاتصال بالطبيب المختصّ في أمراض النساء والتوليد ليقوم بترقيع غشاء بكارتها حتى يعاينها الزوج في عذريتها، وهذه العملية ليست مكلفة مادياً لكونها لا تتعدى 30د تونسية وقد اشتهر أحد الأطباء في سيدي بوزيد وهو الدكتور. "ل" بهذا

النشاط، أما أكثرها تطوراً فهو ترقيع غشاء البكارة باستخدام أشعة ليزر رغم أنها مكلفة حيث يتجاوز ثمنها 700د.

ملخص القول أن سحر التصفيح يراد منه مسايرة المرأة لواقعها المعيش وما يتضمنه من تصورات و تمثلات حولها. فالمرأة دائماً تحوم حولها عدة مسائل غاية في الأهمية والخطورة من وجهة نظر المجتمع، فالمجتمع التونسي في عمومته هو مجتمع محافظ ولئن بدت عليه بعض مظاهر التفتّح والتمدّن على النمط الغربي²⁰. مثلاً نستنتج أن التصفيح يخفي أكثر من جريمة مادية وأخلاقية: فهو تعدّ على حق القاصرين خاصة وأنه يستهدف البنت منذ سن مبكرة وهو بذلك أيضاً هتك لشرف الرجل لما يتزوج هذه البنت ويكتشف أنها عذراء والحال أنها كانت تمارس شتى أنواع الرذائل.

2.1.2 السحر التحطيمي و هتك الشرف:

إن القول سحر تحطيمي، معناه حتمية وجود قطبي صراع. أي هناك طرفي نزاع أحدهما يضمّر الشر للآخر. ويحدث أن يلتجأ أحد أطراف الصراع إلى اختيار السحر كسلاح للدفاع. السحر هنا باعتباره أداة هجومية على العدو، لغاية الانتقام والثأر كما لغايات كيدية وجميعها تتلخّص في عبارة واحدة هي: الصراع و إلحاق الأذى بالطرف المقابل. ولنا أن نلاحظ في هذا الإطار كيف أن الذهنية التونسية لا تزال تحافظ في جانب كبير منها على بعض مزايا السحر مثلاً جاء ذكرها في قصص القرآن " صراع موسى عليه السلام مع الملك فرعون الذي ادعى الألوهية".

وإذا ما نظرنا إلى أهم مشاهد السحر والشعوذة في المجتمع التونسي والذي منه مجتمع البحث سيدي علي بن عون، للاحظنا كثرتها وثرأها زمن المناسبات الاحتفالية وخاصة الزواج، لتمسّ أولاً الجوانب المقدسة في المرأة والرجل أي الأنوثة والذكورة. ذلك هو السحر التحطيمي الذي يراد منه إلحاق الأذى بالآخرين قصد تصفية الحسابات وتحقيق الانتقام²¹، حيث أن نسبة الذين أجابوا بنعم خطر السحر أكثر من نفعه، كانت هي النسبة الغالبة مقارنة بالإجابات الأخرى. وهذا يعود بالأساس إلى دور التنشئة، فضلاً عما يشاهده الفاعلون من ممارسات سحرية يومية علنية بعدما كانت خفية، ففي منطقة سيدي علي بن عون يتجول المشعوذ "ع" على متن سيارته ومعه فتيات ويجوب بهن شوارع البلدة غير عابئ بأخلاقيات الجهة، بل أكثر من ذلك يصطحبهن إلى محلات التسوّق ويبتن معه في بيته ويردد أهالي الجهة عدة روايات حول ممارساته المنافية للأخلاق.

ومن باب التدقيق هنا، فإن ممارسة البغاء والزنا والفاحشة من أبرز الجرائم التي ترتكب من طرف هؤلاء المشعوذين والسحرة. إما أنها تدخل ضمن شروط العلاج أو بفعل طبيعة الفضاء والخلوة وكلّها تثير هذه الحميّة لتنديس المقدّس وتقديس المدنّس. ولنا في هذا الشأن عديد الوقائع، التي عايناها والتي سنأتي إلى شرحها وفق مواقعها المنهجية من دراستنا هذه حول السحر والشعوذة في المجتمع التونسي.

لا تخلو أعمال السحرة والمشعوذين من مخاطر يفترض أخذ الحيطة منها، ويزداد أمرهم خطورة أمام سكوت الدولة عن أنشطتهم رغم علمها بكل ما يصنعونه، وكنا قد بينّا منذ بداية بحثنا هذا، أن بعض أنشطتهم ترتقي إلى درجة الجرائم الخطيرة التي منها القتل والتسبب في هتك الأعراض و الشرف، لذلك فإن ما يرتكبه من جرائم خطيرة يتم في منتهى السرية بعيدا عن كل الأنظار. رغم أن بعضها نقرأه في الصحف، ومنه ما يكون موضوع قضية في المحاكم، وأحيانا أخرى يتسبب ذلك في ضياع حقوق الناس أمام صعوبة إقامة الدليل أو تقصير الجهات المعنية في تقصي آثار هؤلاء السحرة والمشعوذين والتحقيق من شأن الجريمة في أبعادها الميكروسوسولوجية التي يصعب إثباتها ماديا طبقا لأدوات الإثبات الروتينية والتقليدية ومنها الشهود. إلا أن السؤال الذي يبق مدار جدل هنا: لماذا سكوت السلطة السياسية عن أنشطتهم بل بالعكس هي تدعمهم إما بمدّهم تراخيص أو بغضّ النظر عن صنائعهم، بل والتعامل معهم والإستعانة بهم في مناسبات أخرى؟.

ذاع صيت بعض هؤلاء السحرة والمشعوذين بفضل ما يأتونه من أعمال الشرّ والدنائة، أي والحال تلك كل ماهو تحطيمي يلحق الضرر بالآخرين. حتى أن حلقات النقاش التي تدور في المقاهي أو في أي ملتقى بين الأفراد يتم ذكرهم والتباهي بخوارقهم من أمثال الساحر "لوصيّف" المشهور في منطقة زانوش من ولاية قفصة وكذلك "ش"²² في منطقة أولاد شكر في الجنوب الغربي لسيدي علي بن عون، و م ح وشهرته "حرجوطة" في سيدي علي بن عون البلدة، وغيرهم كثير لكل طريقته الخاصة في صناعة الجريمة سواء تحت مسمى السحر أو الشعوذة.

2.1.3. جرائم النسب بواسطة الأعمال الشعوذية:

نفوح رائحة البؤس والمرارة عندما نكتشف بعض الممارسات السحرية التي تفوق أبشع الجرائم التقليدية الظاهرة للعيان، إنها جرائم تخفي الكثير من الغموض والرغبة بل هي أشد فضاغى من مأساة أوديب التي أوردها توفيق الحكيم في تراجيديته "الملك أوديب": فماذا لو يتحوّل الساحر أو المشعوذ إلى أب غير شرعي؟ لا بل قل مغتصب للأعراض والحرمان؟ وماذا لو يكون للمشعوذ أبناء غير شرعيين؟ وماذا لو يتقطن أحد الأباء بعد مرور سنوات أن ابنته هي في الأصل ابنة مشعوذ وما الذي يمكن أن يحدث جراء ذلك؟ وهل تدرك السلط المعنية بحماية الأفراد مثل هذه الجرائم البشعة؟ أم ستكتفي الجهات القضائية بالرد: عدم كفاية الأدلة، عدم توفر ما يوجب مشروعية تقديم ترخيص للقيام ببحث جيني أم هي ستكتفي بالرد بسقوط حق التتبع بعد فوات الآجال القانونية....؟؟؟

هذه بعض أسئلة واستنتاجات محيرة وقد تبدو لبعض الناظرين ضربا من الهراء ولكن نؤكد منذ البدء أن هذه الأسئلة مشروعة. وعديدة هي الآثار التي ستتسبب فيها، خاصة لما عقدنا العزم على كشف المستور من خلال هذه القراءة التي تبحث في المسكوت عنه في عالم الجريمة السحرية والشعوذية.

لأن بحثنا ميداني محض، فإننا سنعمد إلى فهم أغوار هذه الاشكالية أي جرائم النسب إلى تقديم هذه الحادثة كما رواها لنا المواطن "أوديب"²³ لنستند إليها كمثال تحليلي:

أنا لم يسبق لي أن أبديت أي اهتمام بعالم السحر والشعوذة، ومأساتي في هذا المجال انطلقت من قصة زواج فاشلة مع المدعوة K.. حيث تبين لي أنني صاهرت عائلة متشعبة بثقافة الخرافات والأوهام. حيث بدأت المشاكل بيني وبين أصهاري في التصاعد و انتهت أغلبها في المحاكم. وكنت وقتها لم أنجب من زوجتي سائلة الذكر أي طفل، فأعلمت أهلها بالطلاق، لكنهم حاولوا بكل السبل وعبر وساطات أن لا أفعل ذلك مقابل تعهدهم بعدم التدخل في شؤني الداخلية. لكنه تبين لي أنهم حرصوا على الصلح فقط لغايات مادية كيدية، لأن ابنتهم لم تتجب وبالتالي يستحيل عليهم أخذ نفقة الأبناء ونفقة السكن والحضانة وغيرها من الأمور التي تترتب عن ذلك...

بمرور الوقت تواصلت المشاكل بسبب تدخلاتهم و بعد حزمة الصراعات التي عشتها بسبب تصوراتهم الخرافية التي لا تتماشى أبداً وتصوراتي وعقائدي (...) وعلى اثر اضطراري في إحدى المناسبات للسفر إلى تونس العاصمة وتركت K صحبة شقيقتي لتبيت معها في البيت حتى عودتي، وبعد رجوعي من السفر بيوم وبينما كنت جالسا معها في البيت كعادتنا حتى طرق الباب فوجدت والدها وأمهما يريدان منها أن تخرج معهما للبيت. والغريب في الأمر هنا أنها أي ابنتهم ذهبت مباشرة لتغير أدبائها وتخرج معهم وكأن شيئاً لم يكن، رغم امتناعي أنا عن ذلك وتذكيرها ببنود الاتفاق على استمرار حياتنا الزوجية فلم تبالي بذلك.

بعد هذه الحادثة تأكدت من كوني أسير في طريق غير صحيحا ومحفوفا بالمخاطر، فقررت وضع حد لهذه العلاقة، وإجراء قمت برفع دعوى قضائية طالبا بالإنشاء وهو ما حصل فعلا حتى صدور الحكم عن المحكمة الابتدائية بسيدي بوزيد. لكن الملاحظ والملفت للانتباه هنا أنه تبين لي، منذ الأسبوع الأول بعد مغادرتها محلّ الزوجية، أنها حامل في شهرها الأول. إلا أنه بعد صدور حكم الطلاق اتصلت بي عبر الهاتف معبرة عن ندمها من كل ما اقترفته من ذنب في حقّي بسبب أفراد أسرتها وخاصة والدها وأمها، طالبة الرجوع إلى محلّ الزوجية على أن تمنحني التزاما كتابيا معرّفا بالإمضاء وأن تصرّح للسيد وكيل الجمهورية بكل ما تسبّب فيه أفراد أسرتها من سلوك مخالف للقانون والأخلاق الحميدة والذي حال دون أن نعيش بشكل طبيعي. فوافقت على ذلك وهو ما حصل بالفعل ثم واصلنا حياتنا الزوجية حتى وضعت حملها.

إلى حدّ هنا، كنت أتصور أن الأمر طبيعي جدا، لكن قبل أن أكمل لكم بقية القصة هناك أسئلة مفزعة تبادرت إلى ذهني لما جدت أطوار جديدة في حياتنا الزوجية والتي لم أكن أعيرها في الماضي أي اهتمام، من ذلك مثلا:

■ ما مبرر ذهاب زوجتي مع أفراد أسرتها بمجرد أن وقفوا أمام الباب دون الإكتراث بما سبق وأن اتفقنا حوله ورغم يقينها الراسخ بكونهم سبب كل المشاكل، كما يستحيل عليّ أنا التعايش مع هذا النوع من الذهنيات المشبّعة بالخرافة؟

■ لماذا زوجتي لم تظهر عليها علامات الحمل إلا على إثر غيابي على المنزل لما زرت تونس؟ هاتين الملاحظتين تكتسبان جدّيتهما بمجرد أن أعلمك ببعض الأحداث الغريبة التي تتصل بعالم السحر والشعوذة وما سيجدّ من أحداث أخرى في مستقبل علاقتنا وهي جميعها سبب حيرتي وعذابي ومأساتي وموتي البطيء.

■ أما بخصوص السؤال الأول فقد أعلمتني K، بعد قيام الصلح بيننا على إثر الطلاق الإنشائي، كون أمّها أعلمتها أنها أجهدت نفسها كثيرا في جعلها تخضع لأوامرها وتطيعها طاعة عمياء بعد غيبة عنها ناهزت السنة، وذلك بأن فعلت لها "سحرا مرشوشا" وقد عمد شقيقها "I" برشه على عتبة المنزل وذلك في أوقات متأخرة من الليل حتى لا يتقطّن إلى أمره أحد.

قد يبدو الأمر هنا مجرد تخمينات عن خيانة زوجية أو حدوث ممارسات سحرية غايتها التشتيت بيني وبينها وجعلها تطيعهم في إطار ما يسمّى بسحر التفريق أو سحر الجلب. لكن في الحقيقة وبحكم جهلي وعدم إيماني بالممارسات السحرية لم أعطي الأمر أي أهمية. وكنت متيقنا أنه يستحيل عليّ التواصل معها في مثل هذه الظروف مادامت تأتمر بأوامر أهلها. لهذا صارحتها بأنه لا حاجة لنا بطفل ثاني وعلينا اتخاذ الإجراءات الطبية المعروفة حتى لا تحمل من جديد. وكنت من حين لآخر أحملها للطبيب للقيام بتحليل Teste De Grosses وهكذا استمرّت حياتنا مملوءة بالتوترات، حتى بلغ بها الأمر أن بارحت محلّ الزوجية. وكلانا لا يطيق الآخر ومعها ابنتي الكبرى، والتي كان عمرها آنذاك لا يتعدّى السنة. وبقيت أنا أسير أحزاني وهمومي لأنني كنت موقنا أن كل ما يحصل من مأس هو بسبب أسرتها. لكن في النهاية عندما يبلغ الأمر للقضاء فأنا من سيتحمّل المسؤولية وخاصة ضياع ابنتي الوحيدة خاصة إذا نشأت في هذا الوسط الملوّث بالدسائس والخرافات، حتى أفاجا بعد مدّة من مغادرتها محلّ الزوجية بأول مكالمة هاتفية منها تعلمني فيها أنها حامل...؟؟؟؟ فسالّتها مباشرة من طرف من أنت حامل؟؟ فأجابتنني بكل برودة أنا حامل منك أنت.. وإن أبي وأمّي يلحّان عليّ بالرجوع إذا وافقت أنت..

هنا وجدت نفسي أمام جهل من نوع ثان، هذه المرّة ليس بعالم السحر وخاصة إذا كانت تقوم به امرأة من نوع والدّة K، بل أمام جهل طبّي، بدليل تقبّلي للأمر بكل بساطة وفسّرت ذلك بعملية قياسية، كون آخر مباشرة لزوجتي كان قبل مغادرتها محلّ الزوجية بحوالي 15 يوما ينضاف إليها المدّة المقدرة بشهر في بيت أسرتها، ثم اعتبرت ذلك أمرا طبيعيا. وهكذا عاودنا العيش سويا.

بمرور الأيام وأنا أرى زوجتي لا تطيق ما في بطنها، فهي دائماً متقلّبة المزاج شاردة الذهن باستمرار وما لفت انتباهي أكثر خلال هذه المحطة الأخيرة معها، أي قبل انفصالنا نهائياً، هو الزيارات المتكررة لأفراد أسرتها حتى في أوقات غير اعتيادية بل إنني أتذكر كيف أن أمها كانت تأتي بالطعام الجاهز للبيت وهذا من غير عاداتها، وكنت أنا الوحيد من يأكل منه في حين تمنع زوجتي آنذاك من أن تأكل منه متعلّلة بأسباب عدة. وفي ذات مرة وبينما كنت أوضح لها كيف أن أفراد أسرتها وخاصة أباه وأمه عدوانيون بشكل مفرط وكثيرو التمسك بالخرافة من خلال ما بدا من ممارساتهم منذ أول ليلة من زواجنا حتى الآن، فأجهشت زوجتي وهي تمسك نفسها بقوة حتى تبدوا على حالتها الطبيعية وصارحتني من كونها أخفت عني سرّاً مهماً، وهو أن أمها حملتها إلى المدعو م. ح (هو ذلك المشعوذ الذي ألمحنا عنه منذ بداية بحثنا هذا من كونه أخطر مشعوذ على الإطلاق وكنيته "ح") فسألته لماذا حملتك إليه؟ ماذا فعل لك؟ ماهي مقاصدها من ذلك؟ فتلعثمت في الجواب وقالت ربّما لتكتب لي.

هنا أيقنت أن الأمور في غير محلّها، وبدأت أسعى جاهداً إلى فهم ما يدور من حولي، فسارعت في اليوم الموالي إلى بيت والدها وكانت زوجتي هناك في حالة نفسية يرثى لها بعد مبارحتها محلّ الزوجية، فسألته أمها وعيناها تتقدان شراً: لماذا حملتي K إلى المشعوذ "ح"؟ فأجابتنني إنه أمر طبيعي فهذا الرجل معروف بكونه كتاب وعنده جانية تقدر على كشف البضائع المفقودة وأنا اتصلت به ومعني K لنسأله عن بطاقة تعريف أخي الضائعة... انتهى الحوار كعادته وأنا في داخلي ضدّان: قلب حائر وعقل بالتفكير أضناني... وكلما تقدّمت زوجتي في الحمل إلا وازدادت حالتها النفسية توتراً حتى أقدمت على محاولة الانتحار وبالكاد أنقضتها من الموت وكان ذلك قبل أن تضع حملها بحوالي شهر...

إن المغزى من كل هذه القصة التي سقتها لكم، كون كل أطوارها التي ذكرتها لكم، والتي تطرح أكثر من لغز، لها ما يبرّرها. وأبرز هذه العلامات المبهمة هي:

- الحكايات التي روتها لي طليقتي لما كانت زوجتي من الممارسات السحرية التي كانت تقوم بها أمها.
- كيف حملت جنينا في بطنها بعد مضيّ ما يزيد عن الشهر ونصف من آخر عملية اتصال جنسي بيننا بالنسبة للبنت الثانية؟

- أما بالنسبة للبنت الأولى فكيف لا تحمل بها إلا بعد مغادرتها بيت الزوجية في الليل خلصة على إثر سفري أنا إلى تونس وتحديدًا في زمن ضرفي قصير؟
- ثم لماذا كانت نفسية طليقتي كثيرا متعكّرة، لما كانت حاملا بالبنت الثانية. وكانت أقصى درجات هذا التوتر إقدامها على الإنتحار وهي حامل في شهرها الثامن؟

■ لماذا طليقتي لم تبالي بابنتيها ولم تزرهما ولا حتى تسأل عنهما وخاصة البنت الثانية التي كانت لا تطيقها منذ كانت في بطنها؟

■ ما سرّ ذهابها مع أمها إلى المشعوذ حرجوطة قبل حملها بالبنت الثانية؟²⁴

عود على بدء، ونحن نحاول تقديم أبرز مظاهر الممارسات التحطيمية السائدة في المجتمع التونسي، أمكن أن نذكر بما قلناه حول دور الممارسات السحرية عموماً في تحقيق مآرب الفاعلين، أي أننا بذلك نجيب على أحد فروع الإشكالية التي نحن بصدد دراستها: تجليات الجرائم السحرية والشعوذية؟

يبدو ههنا من خلال القصة التي رواها "أديب" كيف تعدّ الشعوذة من أبرز الأدوات المستخدمة في الصراع والحق الأذية بالآخرين بل والانتقام عبر تغيير النسل. هذه الرواية كما أسلفنا القول كانت دافعا لنا في صياغة السؤال 39 من نص الإستمارة والذي نصه: أحد السحرة والمشعوذين الذي ذاع صيته، عرف بكونه يشفي العقم، حتى أن بعض النسوة حملن وولدن بمجرد أن زاروه في خلوته وفعلوا وضعن حملهن، والحال أنه طبيباً يستحيل عليهن الإجابة... هل لك أن تقدّم تفسيراً تفكّ به هذا اللغز؟؟؟ فكانت النتيجة على نحو ما هو مبين في الجدول المرافق:

جدول رقم 1م: عدد الذين أجابوا عن السؤال 39 من فئة المستفيدين

المجموع	التكرارات		النسبة
	لم يقدّم جواباً	قدّم جواباً	
67	13	54	ذكر
83	21	62	أنثى
150	34	116	المجموع
%100	22.66	77.34	النسبة %

كما هو مبين في الجدول فإن 77.34% فرداً من كلا الجنسين قدّموا أجوبة عن هذا السؤال، في حين أن 22.66% فقط لم يجيبوا. ونسبة كبيرة ممّن أجابوا قالوا بأن المشعوذ قام بممارسة الجنس مع هذه المرأة مما أدى إلى حملها. وهذا الجواب يؤكّد جانباً مما نروم إيضاحه في دور الشعوذة في تحطيم وتدمير الكائن البشري مادياً ومعنوياً، وهل ثمة من مصيبة يمكن أن تلحق المرء أكثر من هذه المأساة التي لحقت المدعو "أديب" من خلال روايته هذه والتي على حدّ قوله لا يمكن التأكد منها إلا بإجراء تحليل جيني أو ما يسمى بـ ADN لوضع حدّ للشكوك التي تحطّمه باستمرار أي إن كانت طليقته حملت بالبنت الثانية من المشعوذ "ح" ومن ثمة تكون

أسرتها المشبعة بثقافة السحر بل والمعروفة بهذا النشاط قد حققت مآربها العدوانية لأنهم كانوا يدركون أن الزوج يمانع في الانجاب تمهيدا لطلاق ابنتهم K.

ومما يجدر ذكره-هنا- أن البحث في مظاهر السحر التحطيمي مع السحرة والمشعوذين ليس بالأمر الهين. لأنه ليس من السهل أن يفصح هؤلاء عن جرائمهم البشعة. لذلك اعتمدنا منهاجاً في البحث يقوم على المزاوغة وتغيير أسلوب الحوار من حين لآخر حتى لا نشد أنظار المستجوب إلى ما نصبوا إليه، فكنا في مقابلتنا مع ع ح ز تعمّدنا إلى تلميع صورة بعض السحرة والمشعوذين، وكانت غايتنا في ذلك أن نجعله أمام خيارين: إما تنفيذ هذا القول أو تأكيده. وفي كلا الحالتين، فهو بطبيعة الحال سيستند إلى حقائق يعرفها يبني عليها موقفه ذاك.

وقصد التأكد من صحّة هذا النوع من الجرائم من عدمه في عالم السحر والشعوذة التقينا المدعو "ز" وهو بدوره مختص في مجال السحر رغم تأكيده أنه لا يفعل الشرّ ويفرض ذلك بكل شدة، وكانت إحدى المناسبات التي التقيناها فيها- وبعد سماعنا لقصة المدعو أوديب مع طليقته وفصائها الأسري المشبع بالخرافات والسحريات ومسألة إنجابها الغامضة خاصة من البنت الثانية وعلاقة ذلك بزيارتها صحبة أمها إلى المشعوذ "ح"- تعمّدنا ذكر هذا المشعوذ مؤكّدين على نجوميته وإشعاعه الكبير، فالكل في سيدي علي بن عون يدرك كثرة زبائنه و بداية ظهور علامات الثراء عليه نتيجة ما ينجزه من أعمال، وبمجرد أن قلنا ذلك ردّ على كلامنا هذا بقوله:

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا ببشر فأنا على علم بأعماله الدنيئة التي يأتيها ثم قصّ علينا حادثة مشابهة تتلخّص تفاصيلها بأن امرأة جاءت للعلاج عنده من عدم الانجاب فصرّحت له بأنها زارت المشعوذ حرجوطة وطلب منها أي ينكحها حتى يطرد الجان الذي يسكن أرحامها وبالتالي تكون لها امكانية الحمل وبالتالي يمكن للمرأة أن "تحمل منه" فيذهب في اعتقادها أن شفيت من مرضها وأن ما تحمله في بطنها هو ابنها من زوجها الشرعي...؟؟؟" ²⁵

هذه إذا أبرز المشاهد القبيحة الدنيئة للممارسات السحرية، وهي تخترق حدود المقدّس وقديسيّة الجسد والذي منه الشرف. وعليه نخلص مرة أخرى إلى القول أن وجود الممارسات السحرية التحطيمية في المجتمع التونسي أمر صحيح لا يرقى إلى ذلك أي شك، بل ومؤسسات الدولة على دراية بكل ذلك، فمثل هذه الجرائم القذرة رغم أنها مورست في الخفاء إلا أنها أصبحت بصورة أو بأخرى خبرا عاما يتناقله الناس في لقاءاتهم وجلساتهم. فهل يخفى على الجهات التابعة للدولة والمختصة في تقصي الأخبار أن تتخذ إجراءات من أجل حماية المجتمع من مثل هذه الممارسات؟ خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بممارسات تؤدي إلى خلخلة النسيج الاجتماعي وإرباك العلاقات بين الفاعلين، مما يفقد المجتمع توازنه ويحول دون رقيّه، فليس من باب التحقير أن

نصف مجتمعا ما بالمتخلف أو المتأخر سلوكيا ومعرفيا، بل إن ذلك حقيقة نستخلصها من جملة المؤشرات والمعايير: أفلا يعدّ نكوص الدولة التونسية إذا على محاربة مثل هذه الممارسات السحرية التي تتخر جسد المجتمع، مظهرا من مظاهر تخلفها وارتدادها؟

2.2. جرائم التحيل:

2.2.1. جرائم سحرية-شعوذية تتصل بتطلعات الأفراد:

يتصل هذا النوع من الجرائم بالأنشطة التي تتصل بتحقيق مآرب المقبلين على الأعمال السحرية والشعوذية وهي تطلعات مثل التسريع في الزواج ، الحصول على وظيفة، النجاح في التجارة، الانقطاع على التدخين أو الكحول،...الخ.

لأن بحثنا يخضع لقياسات العمل الميداني فقد تمكنا من تسجيل عديد الشواهد الدالة على هذا الصنف من الجرائم الذي يترواح في أغلبه بين المكر والتحيل. وفي هذا الإطار ادعى أحد المشعوذين وهو من أصيلي منطقة سيدي علي بن عون والقاطن بحي النور بمدينة قفصة، أنه قادر على أن يكشف لنا ما إذا كنا مصابين بمسّ سحريّ أم لا، فكان أن قدّم لنا جزءا من ورقة بيضاء لا توجد عليها أي كتابة أو أثر، طلب منا طيّها وقراءة سورة الفاتحة والمعوذتين. فلما انتهينا من فعل ذلك، سلّمناه الورقة وكنا نتابع بإمعان ماذا سيحدث بالضبط، و كل همّنا وقتها أن نتابع تحركاته وتصرفاته. فكان أن أمسك الورقة المطوية بيده وهي فوق موقد نار يتصاعد منه دخان البخور وبيده الأخرى يمسك قطعة نقدية تونسية لم تعد متداولة عمليا من فئة 1 مليم ويفركها بين أصابعه، وكانت تارة تختفي على الأنظار ومرة أخرى تظهر وفي ذات الوقت كان يتمم أي هو يقرأ "العزومة" ولسوف نأتي في قسم لاحق إلى تحليل هذه السلوكات...بعدها قدّم لنا الورقة وطلب منا فتحها ففعلنا، فإذا بها مكتوبة باللون الأحمر بما نصه:

" أنت معمول لك سحر في مدينة سببيلة وللتخلص من هذا السحر عليك بدفع نفس المبلغ الذي دُفع للساحر وهو 50 د مع إضافة 25 مليما"...تعجّبنا للأمر لكن بمواصلة البحث مع بعض المشعوذين والسحرة تقطنا لأصل الخدعة وهو أن هذه الورقة سبق له وأن كتب عليها ذلك الكلام بـ"ماء الورد" ولما كان يحرك يده فوق الموقد حدث تفاعل بين الحرارة وذلك الحبر السري فظهرت الكتابة.

وفي نفس الاتجاه ننتبه إلى أمر جد ضروري في المخيال الجمعي التونسي، وهو ارتباط تصورهم للسحر الرسمي الحقيقي، بالكائنات الخفية وخاصة منها الجن. وهذا ما أكدته نتائج الاستبيان، الذي يكشف ارتفاع نسبة الإناث اللواتي يؤمنّ بوجود اتصال بين الإنسان والجن أو الشياطين مقارنة بالرجال، حيث بلغ عددهن 38 مقارنة بالذكور 23 فردا. كما ترتفع النسبة في صفوف الأميين وهذا أمر منطقي حيث أن الفاعل

الغير متعلّم يكون أكثر إيماناً وتشبّثاً بالسحر. وهذا ما يؤكد الفكرة الرائجة من كون النساء أكثر إقبالا على محلات السحر و هن إلى جانب ذلك لهن إحاطة كبيرة بعوالمه ووظائفه رغم تعدد الدوافع.

للتدليل على هذا القول، نستشهد بتصريح المستجوب "ط" ضمن ما صرّح به في نص المقابلة حول المشعوذ "حرجوطة" والتي منها قوله:

" كنت أجالس هذا المشعوذ أحيانا بحكم العلاقة المتينة التي تربطني به، فكنت أشاهد عن قرب أهم مهاراته في الخداع و التضليل. كان يجمع من القمامة بعض الأجسام كريش الدجاج وشعر النساء ووبر القطط ويضعها في لفافة ويرمي بها في بيت الجيران، حتى إذا وجدوها اعتقدوا أن هناك من يضرهم لهم شرا، ويسعى لأن يسحرهم، وبالتالي ضرورة تحصين أنفسهم. وعليه يسارعون بها إلى هذا المشعوذ، والنتيجة يكون قد حقّق مأربه، أن يصنع لهم كتابا "حرزا" وبعض العقاقير، مقابل أموال يدفعونها له. هذه التقنية كان يعتمدها في بداية مشواره الشعوذي، لكن ما إن ذاع صيته وأصبح معروفا في الجهة وفي باقي أرجاء الجمهورية بدأ ينوّع أساليبه في الإيقاع بحرفائه."

لم يقف نشاط هذا المشعوذ في الحقيقة عند هذا الحد، بل تعدّاه إلى الالتجاء إلى بعض فتيان الحيّ الذي يسكنه، وهم عاطلون عن العمل و يطمحون إلى تحسين وضعهم المادي. ومن هذه الزاوية أوهمهم بأن هناك ثلاثة فتيات من عائلة محافظة وثرية لديهم إخوة يشتغلون في فرنسا، وبحكم معرفته الوثيقة بهم فهو قادر أن يمدّ لهم يد المساعدة، ويزوّجهم منهنّ. وبالتالي فإن من سيحظى بهذا العرض، ستتاح له فرصة السفر إلى فرنسا... ما إن سمع الشبان هذا النّبأ حتى ابتهجوا له، وسرعان ما وافقوا على هذا العرض. فكان زواج الأول من إحداهن، في حين سرعان ما فشلت الزيجتان الأخريان، بمجرد أن علما أن العملية لا أساس لها من الصحة وهي من الأعيب هذا المحتال الدجال قصد جني المال.²⁶

وأمام المشعوذ عدّة حيل، فمثلا أشهر وأخطر مشعوذي سيدي علي بن عون وهو "حرجوطة" لا يتوانى قيد أنملة على استغلال سذاجة الفاعلين وجهلهم بحقيقة أمره، لأن كل هدفه هو تحقيق مأربه وهي جمع المال. وفي هذا الإطار تقدّم له أحد متساكني الجهة وهو مدمن على التدخين وطلب منه أن يفعل له حكمة أي يكتب له "من أجل الإقلاع عن التدخين، فكان أن قدّم له "حجابا" وطلب منه أن يعلقه في رقبته ليتخلّص حتما من التدخين. إلا أن هذا المواطن لاحظ بأن لا شيء تغيّر بعد انقضاء أيام فتعمّد فتح "الحرز" فوجد به تكرار لكلمة "بطل" 9 مرات.

2.3



صورة رق1م: عينة مما ظهر من جرائم السحرة والمشعوذين في المجتمع التونسي

الكيد والتحطيم:

يبقى الإنسان مسكون بطبعه بهاجس الإنتقام خاصة في حالات التوتر والتصدّع المؤسّساتي التي تحدث بين أقطاب المؤسسة- الأسرة مثلاً- أو بين الفاعلين عموماً. فيكون من الطبيعي البحث عن أدوات الدفاع والهجوم، وهنا يكون السحر أحد مظاهر هذه الأدوات. أضف إلى ذلك كله الحالة النفسية التي عليها الفاعل الإجتماعي وهو يتوق إلى تحقيق مقاصده ولو كلّفه ذلك الامتنثال لكل شروط الساحر أو المشعوذ، أي دفع المبلغ المالي المحدد. هذا، و نجد عاملاً آخر وهو جشع السحرة والمشعوذين في جمع المال مستغلين بذلك كل العوامل سالفة الذكر، حتى أن بعض الزبائن يعبرون عن سخائهم لدى باعة الوهم و البؤس.

وما يهمنا في هذا الجانب قدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا هو الكشف عن بعض الجوانب الخفية للجريمة التي خلال الممارسات السحرية والشعوذية ذات الطبيعة الشعوذية وهو ما أمكن أن نبيّته من خلال نتائج العمل الميداني على النحو التالي:

2.3.1. سحر الربط:

الربط هو تعطيل عملية إتمام الاتصال الجنسي، وهنا لا بد أن نذكر بأمر جد هام، وهو أن العائلات التونسية في عمومها وخاصة في الأوساط المحافظة ما زالت شديدة الحرص على إثبات شرف المرأة بالدرجة الأولى و رجولة (الفعولة) الرجل في المقام الثاني. أما شرف المرأة فيتمثل في إثبات عذريتها قبل الزواج في حين تتمثل فعولة الرجل في قدرته على فضّ بكارة زوجته.

إذا فالربط هو عمل سحري يراد منه تعطيل عملية الاتصال الجنسي من خلال إحداث الكره والنفور بين الزوجين لغاية التفريق بينهما، وهذا بطبيعة الحال أمر يتبعه كثير من العناء والشقاء، فأهل العريس أو العروس يظلون ملاحقين من طرف المجتمع الذي يدفعهم إلى ضرورة البحث عن حلول طبية و التي عادة ما تكون تحاليل وأدوية لا تأتي بنتائج مجدية، مما يفتح الباب على مصراعيه لازدهار الصناعات السحرية حيث يلجأ المربوط إلى دقّ باب السحرة والمشعوذين ويدفع الأموال الطائلة مقابل استعادة رجولته، فالرجولة في مجتمع

شبه محافظ مثل سيدي بوزيد تقوم على عامل الذكورية، فماذا لو كانت معطلة؟ وعلى عامل الأنوثة ممثلة في غشاء البكارة، فماذا إن تعذر فتحها؟ كما أن سحر التعطيل يستهدف المرأة فيجعلها تحس بالبرود الجنسي وعدم الاكتراث بزوجها فيكون كل همها الخلاص منه. فهو غير مرغوب لديها وتحس بكره شديد تجاهه كلما حاول الاقتراب منها، فهو إما قرد أو شبح أو كرية الرائحة أو مزعج لا ينتابها تجاهه سوى الشعور بالكراهية والعدائية.

على اعتبار أن الربط فعل سحري يستهدف خلخلة العلاقة الزوجية وإخراجها عن مسارها الطبيعي، فليس بالضرورة أن يكون في ليلة الزفاف، بل يمكن أن يكون زمن قيام مؤسسة الأسرة، فيسعى العمل السحري إلى استهداف المسحور وجعله ينفر الطرف الآخر كما سبق تبياناه وبالتالي تحصل القطيعة والتوتر.

2.3.2. سحر تعطيل الزواج (الوقف)

يعدّ السحر على هذا النحو، غزو الأرواحية بكل ما تتضمنه من عناصر تجريدية للعالم المادي المحسوس. حيث يعتمد الساحر إلى الاستعانة بأحد مكونات العالم الأرواحي مثل الجن والشياطين والعفاريت والطلاسم والأقسام والأوقاف والأرقام والكواكب، أو بعض مهاراته الخاصة فيما اتّصل بالشعوذين. فالسحر ينتهك بذلك حدود اللاممكن ويخترق منظومة القيم السائدة وفق تطلعات طالب العملية السحرية.

وبعد سحر تعطيل الزواج أحد مظاهر هذا الخرق، حيث أن هناك حربا غير مكشوفة داخل النسيج الاجتماعي، قد تبدو نتائجها واضحة جلية وفق تصورات الفاعلين، إلا أن آلياتها الحربية تظل مخفية، وعلى هذا الأساس نوّكد مرة أخرى أن الممارسات السحرية هي عموما ممارسات ميكروسوسيولوجية.

ليس سحر تعطيل الزواج بغريب على المخيال الجمعي التونسي، بل هو حاضر أمكن معاينته من خلال جملة من العلامات الدالة، حيث يردّ البعض عدم زواجه إلى تعرّضه إلى سحر ضار يحول دون قدرته على الزواج، إذ كلما تقدّم من إتمام ذلك إلا ووجد معوّقات تصده عن ذلك. هذه الموانع في اعتقاد البعض تستهدف المرأة كما الرجل، ولأدل على وجود هذه الموانع التي يعتقد فيها عديد التونسيون كثرة المشاهد السحرية في المعيش التونسي يراد منها التحصّن من أذى السحر والعين والحسد، أي السحر الدفاعي لمواجهة السحر الهجومي. فالسحر التونسي لا يخرج عن السحر العربي الإسلامي الذي يغلب فيه السحر الدفاعي، وهذا ما أكده لنا كل السحرة الذين تحاورنا معهم في مجتمع البحث سيدي علي بن عون، فكلهم يؤكدون أنهم لا ينوون فعل الشر، بل يهدفون إلى معالجة السحر والأمراض ويساعدون الناس على تخطّي أزماتهم المترامية.

2.3.3. سحر التفريق:

ليس هذا الأمر بغريب على مجموع السحرة الذين تحاورنا معهم في منطقة سيدي علي بن عون، لكن قلّما تجد ساحرا يصرّح مباشرة بموافقة على فعل سحر لغاية التفريق، إلا بعد أن يطمئن للزبون. وهذه

الأسفار الخبيثة حوّلت بعض السحرة إلى نجوم في كل أنحاء البلاد التونسية، بل وفي أرجاء عدة من الوطن العربي من أمثال الساحر "لوصيف" من منطقة زانوش ولاية قفصة الذي توفي منذ حوالي سنتين، وكان قد رفض مقابلتنا والتحاور معنا ما لم ندفع له مبلغا يناهز الألف دينار تونسية، أو "شوشان" في منطقة سيدي يعيش من ولاية قفصة، فكلا هذين الساحرين ذائعي الصيت، حتى أن هذا الأخير يتباهى بقدم بعض المشاهير له من العائلات الحاكمة سواء في تونس أو من خارجها، لذلك ليس بغريب أن تبدو علامات الثراء على المشتغلين في مجال السحر والشعوذة خاصة إذا تعلّق الأمر بالحق ضرر بشخص ما.

يعتبر سحر التفريق من أكثر أنواع السحر انتشارا، وهو غالبا ما يكون بين الزوج والزوجة أو بين الأخ وأخيه أو بين الأب وابنه أو بين الأم وأولادها وبناتها أو حتى بين الشريك وشريكه في العمل. وأسبابه الحقد أو المصالح الدنيئة لشخص لا يروق له أن يرى علاقة مثالية بين اثنين.

و سحر التفريق شائع في المجتمع التونسي ولو بدرجات متفاوتة، فلو أخذنا على سبيل المثال مجتمع البحث سيدي علي بن عون للاحظنا أن 47 فردا من جملة المتزوجين من فئة المستفيدين أجابوا بـ "نعم" إن السحر يمكن أن يحدث التفريق، في حين أن 43 فقط من العزاب أقرّوا بذلك على أن الجواب بـ "لا أصدق" يأتي في المرتبة الثانية، وهذه النسبة تدل على نقشي هذه الممارسة في المجتمع التونسي كممارسة وتصور.

هذا النوع من السحر هو الأكثر شيوعا بين الناس وهو الغالب استخدامه من قبل السحرة على مر الأزمان ، يقول الله تعالى: "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ"

وبالتالي، فإن سحر التفريق يعبر عن درجة من الكره والبغضاء المستشرية بين أقطاب الصراع فهو يعكس أعلى درجات التوتر والتصدّع، ومن مقاصده استهداف الطرف المقابل لشلّ حركته الطبيعية وتحبيدها عن وجهتها الاعتيادية، وبالنتيجة حدوث قطيعة وتوتر، و من نتائجها تفاقم الصراعات وتصدّع العلاقات بين الأفراد المستهدفين بهذا الفعل العدوانى الخبيث. ومن هذا المنطلق فإن الساحر أو المشعوذ على حد السواء، تماثلا مع رغبة الفاعلين في هذه المقاصد التحطيمية، أي والحال تلك الاستجابة إلى مطالب أقطاب الصراع الأسري: الزوج والزوجة، و لأن غايته الأساسية ربحية بحتة فلا يتورّع أن يستجيب لمطالب أحدهم بأن يفعل له عملا سحريا يستجيب وتطلعاته. ورغم التكتّم الشديد على كل أنشطتهم الضارة فإن 12 منهم صرحوا بقدرتهم على سحر التفريق الذي يقابله في الواجهة الأخرى سحر المحبة والتهيج.

عموما، فإن عالم السحر والشعوذة مليء بالخوارق والمآسي، وهي آلام صامتة لا يمكن التقطن إليها بحكم طابعها السري القائم على التكتّم والحذر الشديد من كشف الأمر، إلا أن حجم الكارثة هو من يخرج مثل

هذه الجرائم إلى العلن. فتصبح موضوعا تتداوله الصحافة أو موضوع أحد القضايا في المحاكم، وهذه الجرائم والمآسي الميكروسوسيولوجية تتفاقم خطورتها كلما كان موضوعها المال والسعي إلى الثراء.

2.4. جرائم متصلة بسحر استخراج الكنوز:

إن إيمان البعض العميق بتوكل خدام الجن على الكنوز المدفونة راجع في اعتقادنا للعقلية السائدة في الجهة، أي وجود تصوّر خرافي أسطوري مشحون بعديد القصص التي ابتدعها الناس من وحي خيالهم أو بنقل الروايات الخرافية، أو بعض الأحداث التي حصلت فيأولونها تأويلا خاطئا. من ذلك مثلا أن عديد المنقبين عن الكنوز باستخدام "العزومة" أي السحر، يروون أحداثا مثيرة للدهشة، من نوع أن ماردا من الجن في شكل عفريت أو ماعز أو قطّ أو حيوان مفترس أو أشباح مصحوبة بأصوات مرعبة هي في اعتقادهم الجن المتوكل على الكنز المراد استخراجه. و هذا الموقف أمكن قراءته من خلال الرسم البياني رقم 29، حيث ارتفعت نسبة المستجوبين الذين يتمثلون الساحر بقدرته على التواصل مع الجن والكائنات الغريبة، حتى أن بعض المشعوذين أو أولئك الذين يعتقدون أنهم حاذقون لطاسم سحر الكنوز وتسخير الجن لخدمتهم في استخراج الدفائن، استغلوا هذه التصورات- التي طالما سيطرت على عقول الفاعلين واستحوذت على معتقداتهم بفعل غلبة الوعي الخرافي والذي منه السحري- ليتفننوا في سلب أموال اللاهثين وراء جني المال والثراء السريع، وكم هي عديدة الوقائع المروعة التي حصلت في منطقة سيدي علي بن عون على سبيل المثال وليس الحصر، لأن مثلها يحصل في باقي أنحاء الجمهورية وبأشكال أشد قبحا وغرابة وخطورة. ليصل الأمر إلى حبك بعضها في القصر الرئاسي من طرف العائلة الحاكمة "الطرابلسية"، ونتج عن ذلك كله جرائم راح ضحيتها أبرياء وخاصة من الأطفال أمام أنظار العدالة ورجال الأمن الذين هم على علم بكل تفاصيل أنشطة هؤلاء السحرة والمشعوذين الذين يعمدون إلى اختطاف الأطفال، ولنا أن نساءل رجال الأمن والجهات المختصة كم من قضية اختطاف بقيت غامضة إلى حد الآن؟ بل أكثر من ذلك ما مصير الأطفال الذين اختطفوا؟²⁷ حتما لقد تم ذبحهم فهم عبارة عن "نشرة" وهي الشرط الذي يشترطه مانع الجن ليسلمهم "الكنز-المالية".

اللافت للانتباه في هذا الصدد، أن جنون التونسي وراء الاكتناز والثراء السريع دفع به إلى نسج بعض الخطط الإجرامية الخطيرة، يستوحي أطوارها من الخوارق السحرية على نحو ما سبق ذكره في قصص ألف ليلة وليلة، أي نحن إزاء ما يسمى في القانون الجنائي القيام بالجريمة مع سابقة الإضرار والترصد، أو ما سماه المنصف وناس بـ"جنون الكنوز" وهو ما أمكن توضيحه من خلال المثال التالي وهو ليس بوحيد :

عمد أحد متساكني سيدي علي بن عون وهو المدعو B إلى تزويب "مهراش"²⁸ من النحاس وذلك باستخدام آلة كهربائية (الملايسك) meula disque ، ليتحصّل على فَتَاة النحاس الذي يحدث بريقا مثل الذهب على ضوء القمر وقام بوضعه في "جرة" قديمة بعد أن قام بتلطّيخها بالرماد، حتى تظهر وكأنها من

الماضي القديم مثل العهد الروماني، فالمدعو B خطّط للجريمة من خلال الاستعانة بالرصيد السحري الشائع في الجهة، بل قل تطويع التصورات السائدة. ثم قام بدفنها في أحد الهناشر المتواجدة في سيدي علي بن عون وبعد انقضاء مدة قصيرة وباتفاق مع أحد أصدقائه، أعلموا أحد تجار الذهب بأن هناك كنزا ثميناً متواجداً في أحد الأماكن الأثرية في سيدي علي بن عون، وعرضوا عليه شراءه في صورة تمكنهم من استخراجها، وليس عليه دفع أي ملّيم من تكاليف العزومة، لأنه و للتوضيح فإن العزّام عندما يأتي لتربيع مكان معيّن والتعزيم عليه يأخذ أجرته مرتين: مرة باستخدام حيله وخداعه كأن يوهّم المعنيين بالأمر بأنه لا بد له من استخدام بعض العطور والحشائش التي تعد ضرورية في إتمام عملية التعزيم، وخاصة منها "لوبان ذكر" المعروف بندرته وغلائه المشط، ولا يمكن لغير المختصين أمثاله معرفة مكان بيعه ومعرفة جودته، وبالتالي يسطو الساحر أو المشعوذ على كل الأموال ويأتي ببعض المستلزمات العادية. والمرة الثانية التي يتحصل فيها على المال هي تسلمه لأجرة عمله المتفق عليها مسبقاً، ليبقى السؤال الوجيه هنا و الذي ربما لم يتفطن له أغلب الضحايا وهم غارقون في أحلام الثراء: لو كان هذا الساحر أو المشعوذ قادراً فعلاً على استخراج هذا الكنز فلماذا لا ينجز هذا العمل لصالحه؟؟؟

يقول المنصف وناس في إطار تحليل الشخصية التونسية: "إن هذا الإصرار على الإثراء اعتماداً على ما يمكن أن نسميه "جنون الكنوز" ليس تعبيراً مجرداً عن عقلية الثروة السريعة بغض النظر عن مصدرها بل هو تعبير كذلك عن احتقار المجهود(...). ولذلك تعتمد بعض الجماعات الاجتماعية وحتى الأفراد إلى إنتاج الوهم وترويجه ومحاولة تعميمه على بقية مكونات المجتمع الأمر الذي يفسر هيمنة أسطورة الثروة ومحاولة الإيهام بأنها في متناول الجميع. فيكفي أن يتم نبش الأرض والبحث في الجبال والأودية والمقابر والتوابيت."²⁹

2.5. سحر العلاج وأكثر من جريمة:

كان السحر ولا يزال من الأدوات العلاجية الشائعة إلى يومنا هذا، وفي تونس رغم التقدم الطبي الهائل فإن البعض يفضل اللجوء إلى الممارسات السحرية قصد العلاج. وليس بغريب أن يطلق الساحر شوشان الهمامي على نفسه اسم طبيب رعواني. فالغاية من ذلك مزدوجة، منها ماهو ظاهري يتقبله المجتمع لأنه مألوف يتلاءم مع ماهو شائع، وماهو باطني يعد شاذاً لأنه مشحون بالعجيب والخارق.



صورة رقم 2-م: قبر المشعوذ والساحر أحمد العقون على شاكلة الأولياء الصالحين، داخل بيته في منطقة الواعرة، الحرشان، سيدي علي بن عون.

اعتبر إدموند دوتيه من خلال معايناته الميدانية للمجتمع المغاربي، بما في ذلك تونس،³⁰ أنّ سكّان المغرب العربي لا يزالون يعتبرون الطبيب ساحرا³¹ contre-sorcier ، وذلك نقلا عن المعتقد السائد عند العرب القدامى، بل ويعتبر أنّ " الطب ابن السحر، حتى في وقتنا الراهن، فالطب في شمال إفريقيا قلما يميّز بين السحر وصرع الجن"³² ولا يزال هذا الإعتقاد سائدا في المجتمع التونسي الراهن، حيث يختص السحرة والمشعوذون بعلاج الأمراض بما في ذلك المستعصية والتي عجز عنها الطب الحديث، لذلك نرى في أعمدة الإشهار الخاصة بهم يقدّمون في المقام الأول تخصصهم في علاج الأمراض الخطيرة مثل "بوصفير"، "السيدا"، "السرطان"، أي أنهم والحال تلك يسعون قدر الإمكان إلى مواكبة العصر ومستجداته من خلال زعمهم في علاج الأمراض التي استحال على الإنسان بقدراته البحثية والمخبرية والتحليلية الهائلة على علاجها.

كل ما سبق بيانه لا يزيد عن كونه مشهدا من مشاهد السحر الرائجة في المجتمع التونسي، أي والحال تلك، فإن معظم الأولياء الصالحين لا يزيّدون عن كونهم سحرة ومشعوذين ومتحايّلين مارسوا شتى أنواع الدّجل تحت عباءة الدين لكن أي دين؟ إنه الدين الشعبي كما أسلفنا بيانه.

ففي منطقة سيدي علي بن عون على سبيل المثال وتحديدا في منطقة " الواعرة"³³، كان المشعوذ والساحر "أحمد العقون"، في حياته يمارس شتى أنواع الدجل ويستجيب لكل طلبات الزبائن الذين يأتونه، لأن له

وفق تصورهم "ديوان من الجن" يشتغل تحت إمرته فكان ينصب الشراك قصد سلبهم أموالهم و بمجرد وفاته تحوّل مقرّ سكناه إلى مزار بل قل خلوة، ليحتل مرتبة الولي الصالح.

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى كون السعي وراء جمع المال وتحقيق الحراك الاجتماعي، دفع البعض في سيدي علي بن عون إلى مسابرة هذا الواقع الحافل بالتصورات والأعاجيب عن الجن والسحر والأرواح الشريرة، إلى محاولة احتلال منزلة المعالج، لنكون بذلك إزاء مفهوم الشعوذة. فمنهم من يدّعي أن له جانية اشتراها بالمال من أحد السحرة في ولاية سوسة مثل ع.ج ومن يوهّم زبائنه أن له جانية تمده بالحكمة والحلول السحرية للعلاج. وفعلا هو يتكلّم ويتمتم حتى يوهّم المرضى والزائرين أن ما ادعاه صحيح وبالتالي كسب ثقتهم ومنهم من يخرج من سيدي علي بن عون زائرا مناطق أخرى من البلاد التونسية لغاية إقامة الحضرة والعلاج. مستغلين بذلك قدسية هذا الاسم "سيدي علي بن عون" الولي الصالح، فتذبح لهم الذبائح وتقدّم لهم الهدايا والعطايا ومنها المال. من ذلك أن مجموعة من هؤلاء وعلى رأسهم "ك ع" الذي يدّعي أنه طبيب روحاني يداوي العقم ويفك التابطة ويداوي السحر (علما وأنه هو في حد ذاته عقيم) يسافرون باستمرار إلى أماكن متعددة من البلاد التونسية عبر الاستعانة ببعض معارفهم فيها، فتقام الحضرة وتقدّم لهم الولائم ويتجمّع الزوار الذين سمعوا بقومهم، لكل حاجته. وقبل بداية الحضرة يتسلّل بعضهم لوضع بعض الأجسام في أحد جنبات الزاوية أو المنزل الذي ستقام فيه الحضرة أو المأدبة تبركا بأولاد سيدي علي بن عون "إن شاء الله بيه" وهي عبارة تطلق لإبراز التقديس و التودّد له.

وما إن يشتدّ قرع الطبول والذكر حتى يقف المدعو "الكامل بن العلام" ويقول مهّدوا الطريق، بمعنى تخصيص مكان من الفضاء يمكّنه من الحركة بارتياح، ويطلب إحضار موقد البخور ويأمر الجميع بعدم الكلام والخوف إذا رأوا شيئا غريبا، أي أنه والحال تلك يهيئ الحاضرين لمعايشة وتقبّل ما يخفيه لهم من حيل وخزعات التي ستبدو لهم منسجمة مع تصوراتهم لعالم الخوارق. ثم يقترب من موقد البخور حتى يخفيه بملابسه الفضفاضة وبحركة غريبة وخفية يقوم برمي " الكجّة"³⁴ داخل الموقد ويبتعد مسافة وهو يقوم بحركات ورقصات منسجمة مع قرع "البندير" حتى يحدث انفجار خفيف بسبب اشتعال الكجّة، فتتعالى زغاريد النسوة وهناك من يصاب بالصرع والدهشة فيواصل هو في حيله ويقوم بجلب أحد المصابين إلى مجاله الخاص، ثم يتمتم وبشعل البخور وبعدها يصرّح للجميع بأن هذا المريض مصاب بعمل سحري سيتولّى جلبه أمام أنظارهم فوراً، فيأمر أحد الحاضرين بالتوجّه إلى المكان المعيّن من جنبات الزاوية الذي يحدده له بكل دقة ويأتي بما سيجده هناك. تتطلي الحيلة على الحاضرين بمجرد فتح هذا القرطاس الذي به شعر أو أجسام حيوانية أو مخطوطات سحرية فيصاب الجميع بالدهشة والرغبة من هول المشهد. وهنا لنا أن نعاين عن كثب حضور التمثّل السحري والخرافي لدى الحاضرين، فتغيب كل آليات التحليل والتصور العقلي لديهم في فهمها للمسائل.

فالأفراد في هذه الحالة أدركوا الفعل السحري من خلال المعنى الدلالي الذي تخزنه الذاكرة الجماعية ويتم إدراكه حسياً على حد تعبير جون كلود أبريك، من خلال "نظامها الخاص" الذي تنتمي إليه.¹

هذا وقد استنتجنا كون الممارسات الطبية التي تحصل في سيدي علي بن عون من السحرة والمشعوذين لا تخلو من جرائم بشعة من نوع التعدي على الشرف عبر ممارسة الفاحشة. حتى أن بعض المشعوذين يقدمون من بين الحلول العلاجية لمرضاهم ضرورة ممارسة الجنس معهم، لأن ذلك أمر ضروري لتحقيق العلاج، وكم هي عديدة الجرائم التي حصلت في هذا الجانب .

خاتمة:

يحفل تراثنا العربي الاسلامي بعديد الظواهر القابلة للتحليل السوسيولوجي، وما يزيد في جدية دراستها هو تشابكها مع حاجيات الفاعلين وتطلعاتهم، مثلما رأينا ذلك في ظاهرتي السحر والشعوذة. فهذه الظاهرة بقيت بحكم قلة الدراسات التي اهتمت بها تخفي في طياتها عديد الاشكاليات المستعصية ومنها الجريمة. فالجريمة في مفهومها الواسع أخذت عدة أشكال ومظاهر، ونسمع باستمرار عن أنواع جديدة من الجرائم. ولكن أكثرها غرابة وطرافة هي تلك المتصلة بمجال السحر والشعوذة حيث هي جرائم صامتة لا يمكن تحسسها مثل بقية الجرائم، إلا ما ظهر منها بعد البوح بها من قبل المتضررين الذين نطقوا لها. وفي مجتمع كالمجتمع التونسي لاحظنا أن الجرائم السحرية والشعوذية تتصل بحاجيات الفاعلين إلى الحراك والتغير الاجتماعي وخاصة الحاجة إلى الكسب أو تحقيق غايات لم يتم إدراكها داخل الأطر المتعارف عليها داخل المجتمع، أي المؤسسات المشروعة.

لذلك فإنه لا يفوتنا أن نستخلص أن المجتمعات المتحضرة أول ما قامت بالقطيعة مع موروثها الخرافي وقيام الثورات التي كانت بمثابة النقلة النوعية من مجتمعات متخلفة إلى أخرى عصرية قامت بتحطيم كل المؤسسات التقليدية التي تتعارض مع الفكر التنويري، حتى أن مآل السحر والمشعوذين في إطار هذه الحملات الثورية هو الإعدام ونفس الأمر حدث في الحضارة الاسلامية في أوجه قوتها. فكان عمر بن الخطاب أول من نفذ عقوبة الإعدام ضد ساحرة. وعليه فإن من جملة ما نخرج به من خلال هذه الدراسة أنه على مجتمعاتنا العربية أن تعيد ترتيب موروثها الثقافي في إطار قراءة حضارية تأخذ بأسباب التقدم من جهة و الحفاظ على الموروث من ناحية ثانية.

¹ بذاك شابحة، الوظيفة السوسيولوجية للسحر عبر الأسطورة القبائلية: دراسة سوسيولوجية، أطروحة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، السنة الجامعية 1992-1993.

¹ Abric (Jean-Claude), *Pratique sociale et représentations*, sous la direction de j-abric, PUF, 1994, 2ème édition 1997.

² واليس بدج، ، *السحر في مصر القديمة*، ترجمة وتقديم عبد الهادي عبد الرحمان، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة العربية، 1998.

³ سامية حسن الساعاتي، *السحر والمجتمع: دراسة نظرية وبحث ميداني*، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

⁴ مجموعة مؤلفين، *السحر من منظور إثنولوجي*، ترجمة محمد أسليم، مكناس، مطبعة سندي، 1999.

⁵ محمد أسليم، *الإسلام والسحر*، منشورات الزمن، سلسلة كتاب الجيب، العدد: 16، 2000.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون المغربي، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: " المقدمة"، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 496.

⁷ مقال بعنوان " تونس.. رواج تجارة السحر والشعوذة "، منتدى الرقية الشرعية www.ruqya.net بتاريخ 12 جانفي 2010.

⁸ Jeyaraj (Stanley Tambiah), *Magie, religion and the scope of rationality*, cambridge university press 1990, p.72.

⁹ مقال بعنوان: "سوسيولوجيا ماكس فيبر"، منقول عن رواق الفلسفة على خطى أوغسطين وابن خلدون، الأربعاء، 10 فبراير 2010، منشور في philosophie69.jeeran.com

¹⁰ Durkheim (Emile), « Représentations individuelles et représentations collectives », in *Revue de Métaph et de Morale*, VI, 1898, pp. 273-302.

¹¹ نقلا عن يحيى بن موسى الزهراني، إمام الجامع الكبير بتبوك، الموقع الإلكتروني: www.zadalmaad.com

¹² Mauss (Marcel) & Henri (Hubert), « Esquisse d'une théorie générale de la magie », (1902), in Mauss (Marcel), *Sociologie et anthropologie*, Paris, PUF, 1950, pp.13-17.

¹³ Doutte (Edmond), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord: La société musulmane du Maghrib*, Alger, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur 9, Place de la Régence, 1909, Livre numérisé en mode texte par : Alain Spenatto, www.algerie-ancienne.com, p.603.

¹⁴ محمد زهير الحريري، *السحر بين الحقيقة و الخيال*، دار الإيمان، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص 120-122.

¹⁵ محمد أسليم، *هوامش في السحر*، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، 2001، ص 1.

¹⁶ سمير عبده، التحليل النفسي للجريمة، دار الكتاب العربي، دمشق، 1989، ص 10.

¹⁷ Bessis (A.), Marthelot (P.), de Montety (H.) et Pauphilet (D.), *Le Territoire des Ouled Sidi Ali ben Aoun: contribution à l'étude des problèmes humains dans la steppe tunisienne*, Paris, Presses Universitaires, 1956.

¹⁸ مقابلة مع الكتّاب الروحاني "ج"، سيدي علي بن عون في 13-04-2010.

¹⁹ نفس المقابلة.

²⁰ الفتاة في الغرب الأوروبي من حقها الطبيعي أن تمارس الجنس خارج مؤسسة الزواج، بل فقط في الحالات الاستثنائية تحافظ الفتاة على عذريتها قبل الزواج. كما أن الأمر اعتيادي أن تتشكل نواة شبيهة بـ"الأسرة" في هذه المجتمعات مختلفة جذرا ومضمونا عن خصوصيات الأسرة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، فمثلا في مجتمعات أوروبا عموما وخاصة أوروبا الشرقية مثل رومانيا والمجر والدول التي كانت خاضعة للمنظومة الاشتراكية السوفياتية شأن أوكرانيا وروسيا ومالدوفيا فإن الفتاة ترتبط بشاب وينجبان أبناء دون أن تتم مراسم الزواج ولا حتى عقد الزواج ويمكن لهذه "الأسرة" أن تتحل بطريقة اعتيادية دون أن يترتب عنها أي آثار. هذه الإفادات تحصلنا عليها عن طريق أصدقاء من أوكرانيا وروسيا).

²¹ Manoury (Pierre), *Traite Pratique de Magie Sexuelle*, Scan By www.akkasshaa.fr.st, le 12-6-2011.

²² توفي منذ حوالي 4 سنوات.

²³ اخترنا لهذا المواطن اسم أوديب لأنه يعاني الأمرين من هول الهواجس والشكوك التي تخامره من شدة الألم خاصة في ضل انعدام سلطة رقابة تنصت له وتساعد على فكّ حيرته. حتى أنه صرّح لنا حرقا بأنه فقد الثقة كليا في القضاء واتصل حتى بوزير العدل ولكن دون جدوى وكان كل طلبه هو الترخيس له للقيام ببحث جيني ADN ليتأكد من المعطيات التي بحوزته أي من صحة نسب مولوده من عدمه خاصة وأن القرائن التي بحوزته تثير عديد الشكوك والريبة.

²⁴ تصريحات المدعو "أوديب" الذي صاهر عائلة منشعبة بثقافة السحر والشعوذة، سيدي علي بن عون في 15-02-2009.

²⁵ مقابلة مع "ز"، منطقة الزرارقية، التابعة لإداريا لمعمدية حاسي الفريد، على الحدود الشمالية الغربية مع منطقة سيدي علي بن عون، 18-11-2008.

²⁶ مقابلة مع المواطن "ط"، في محله التجاري الكائن بطريق 7 نوفمبر سيدي علي بن عون، 11-04-2009.

²⁷ في سيدي علي بن عون مثلا نجت طفلة لا يتعدى عمرها 10 سنوات بأعجوبة من موت محتم. حيث بمجرد خروجها من البيت مسكتها امرأة ووضعها غصبا في كيس كبير، وما إن وصلت بها أحد الشوارع الضيقة الغير أهلة بالمارة حتى قامت بوضعها في الكيس وأمرتها أن تجلس هادئة ريثما تعود، لتشتري لها علبة "ياغرت" إلا أن البنت تمكنت من النجاة بعد أن فتحت الكيس ولذت بالفرار.

²⁸ هو إناء نحاسي لا يتجاوز ثمنه 10 د تونسية يستعمل لرحي التوابل.

²⁹ المنصف وناس، الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية التونسية، الدار المتوسطة للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2011، ص 109-110.

³⁰ في الحقيقة ركّز دوتيه في كتابه "السحر والدين في شمال إفريقيا" بوجه خاص على كل من الجزائر و المغرب بشيء من التفصيل في حين كان تعرضه للمجتمع التونسي أمرا عرضيا، إذ قلما يتحدّث عن بعض الممارسات السحرية في المجتمع التونسي، فمثلا نراه يتنقّل بين ولايات كل من الجزائر والمغرب ويعدّد تباين الممارسات السحرية بين الجهات وهو ما لم يفعله بخصوص المجتمع التونسي.

³¹ Doutte (Edmond), « Le Contre-Sorcier », in, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord: La société musulmane du Maghrib*, Alger, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur 9, Place de la Régence, 1909, Livre numérisé en mode texte par : Alain Spenatto, <http://www.algerie-ancienne.com>, p.36.

³² Idem., p.35.

³³ عرش الحرشان، على بعد 11 كلم من سيدي علي بن عون البلدة على مستوى طريق سيدي يعيش، وهي موطن عرش الحرشان والتي منها ينحدر أبرز السحرة والمشعوذون بالأساس مثل العقون وحرجوطة و م ح.

³⁴ هي كرة صغيرة جدا يتسلّى بها الأطفال وتعرف في "الدارجة" التونسية بكرة البيس.